التحليل السلوكي للغة
إلياذة هوميروس أنموذجا

الدكتورة:صفية طبني
قسم الآداب و اللغة العربية
كلية الآداب و اللغات
جامعة محمد خيضر –بسكرة

الملخص:

الإليـاذة "دراســة ســلوكية " الغرض منـه الوقوف على خصـائص هذه النظريــة و كيفيــة تطبيقهـا علـى نصـوص لغوية، من خلال تحليل اللغة ،انطلاقا من المثال البسيط الذي ضربه بلومفيلد {جاك, و جيل, والتفاحة }، وهي تروم دراسة اللغة دراسـة علميـة ؛تـدعو إلـى رصـد المثيـرات والاستجابات المختلفة من خلال خلقها من البيئــة التــي تحـيط بنــا ،والإليــاذة نــص دينـاميكي؛ يسـاعد فـي اسـتخراج عـدد لا بأس بـه من المثيرات، فالمثير هوما يدفع إنسـانا إلـى الاسـتجابة و يكـون دائمـا ممـا يحيط بنا أخواتها.

Abstract:

Iliad "behavioral study" designed to stand on the characteristics of this theory and how to apply them to linguistic texts, through the analysis of the language, from the simple example set by Bloomfield {Jack and Jill, and apple}, which is intending to study language scientific study; calls for monitoring various stimuli and responses created by the environment that surrounds us, and dynamic text of the Iliad; assist in the extraction of quite a number of stimuli, witch pays a man to respond and will always be what surrounds us.

مقدمة

تعد دراسة المعنى من المشكلات التي عرقلت معظم الدراسات اللغوية، لذالك نجد الكثير من البنويين يستبعدون المعنى في دراستهم للغة استبعادا كليا، ويهتمون بالشكل الخارجي لها فقط ، ويقرر بلومفيد أن اعتبار المعاني يعد أضعف نقطة في دراسة اللغة ،هذه الأخيرة في رأيه لا تتعدى كونها شكلا من أشكال الحافز فالاستجابة لهذا الحافز، فعن طريق نطق صيغة لغوية يحث المتكلم سامعه على الاستجابة لموقف و هذا هو الأساس الذي بنى عليه نظريته السلوكية التي ساعدت كثيرا في تطوير منهج البحث التجريبي في اللغة حتى تكون دراستها دراسة علمية مستقلة عن العلوم الأخرى ،و لكي تكون الفائدة كبيرة بالنسبة للباحث في هذا المجال وجب عليه الاطلاع على أغوار هذا العلم وتشعباته؛ أي: على الظروف والملابسات التي تحيط بهذا العلم ،إلا أن الدراسة التطبيقية تبقى وحدها القادرة على إيضاح ما يريد الباحث إفهامه فيحصل التكامل بينه وبين القاريء

و بلومفيلد من الذين يميلون إلى الاتجاه العقلي, لكن التقاءه أستاذ علم النفس"وايس " سنة 1921 حمله على النظر في أسس مبادئه الألسنية و ذلك انسجاما مع النظرية السلوكية في علم النفس، وعلى الرغم من وجود من سبقه في هذا المجال؛ إلا أن رأيه لاقى اهتماما كبيرا، لأنه يعد "واحدا من أكثر اللغويين تأثيرا في تطور الدراسة العلمية للغة في النصف الأول من هذا القرن ، وهو– أكثر من غيره –المسئول على تقديم المذهب السلوكي إلى علم اللغة " [1]

و عموما فقد كان المنهج العلمي السائد في المراحل الأولى للسانيات هو المنهج البنوي ، وكان بلومفيلد رائدا من رواد هذا المنهج، فقد لعب دورا مهما في تطوير اللسانيات الأمريكية من خلال مؤلفاته "مدخل إلى علم اللغة " سنة 1914، إلا أن أشهر كتبه هو "اللغة" عام 1933،و الذي وصفه الباحثون بأنه إنجيل علم اللغة الأمريكي ،وقد هيمن على معظم الدراسات اللغوية في السنوات التالية لصدوره, لينتهي به ذلك إلى إنشاء مدرسة لغوية تنتسب إليه في أمريكا مازالت قائمة حتى اليوم .

1– <u>النظرية السلوكية</u> :

قامت هذه النظرية أساسا على التفسير الذي قدمه السلوكيون للمعنى "فالمواقف الاجتماعية التي يعمل ضمنها الإنسان هي بمثابة منبهات تدفعه إلى سلوك معين و ما يصدر عنه من كلام هو استجابة لتلك المنبهات "[2] ،أي إن المعاني عبارة عن منبهات تتبعها استجابة لفظية [3]

يرى بلومفيلد رائد هذا الاتجاه، إنه يجب اعتبار اللغة أو عملية التكلم اللغوية التي يقوم بها الإنسان سلوكا مثل أي سلوك آخر يمكننا أن نراه مباشرة،إذا فهذه النظرية "تركز على ما يستلزمه استعمال اللغة (في الاتصال) و تعطي اهتماما للجانب الذي يمكن ملاحظته علانية "[4] فالكلام في البداية يكون غير مسموع, وكما يرى السلوكيون يكون الكلام خفيا (يصبح في هذه الحالة تفكيرا)، لكنه يتحول بعد ذلك إلى كلام مسموع عندما نحتاج إليه , و هنا يصبح من حيث المبدأ سلوكا مرئيا يمكننا ملاحظته علانية، وقد رفض بلومفيلد كل الظواهر التي لا يمكن أن تخضع للمنهج التجريبي ،لأن هذا الأخير يعتمد الملاحظة المباشرة وهو ينظر إلى ظاهر السلوك اللغوي مهملا بذلك دراسة المعنى لأنه في نظره أمر نفسي، فهو "ليس مظهرا خارجيا يمكن النظر فيه بالمنهج الموضوعي المستخدم في العلوم التجريبية "[5] فتعريف المعنى تعريفا علميا أمر صعب للغاية لأنه يتعلق بالمواقف والأحداث الكلامية التي يكون ضمنها الإنسان، والتي تمكننا من معرفة الاستجابة إذا عرفنا الظروف و الملابسات التي تحيط بهده المواقف وهده الأخيرة غالبا تختلف عن بعضها، وبالتالي فان المعنى يختلف باختلافها، لأن المعنى هو "ذلك الموفق الذي ينطق فيه الكلام و الاستجابة التي يستدعيها عند السامع "[6]، وبما أنه من الصعوبة معرفة كل ما يحدث في عالم المتكلم من مواقف وأحداث ، فبالضرورية يصعب إعطاء تعريف علمي دقيق للمعنى

نستخلص من ذالك أن بلومفيلد يحاول دائما ربط الأحداث التي يمكن ملاحظتها بالمواقف المباشرة التي تنتج فيها هذه الأحداث مركزا عليها وتلك المواقف؛ أي: ما يسمى بالمثيرات والاستجابات و هو ما اسماه بلومفيلد{الصيغة اللغوية} و الشكل الذي يستعمل عادة لتوضيح العلاقة بين المثير والاستجابة هو :

م _____س {م تعني مثير – س تعني استجابة }

و بما أن السلوك اللغوي مجموعة من المثيرات والاستجابات المتتالية التي تشكل فيها الكلمة الأولى للحدث الكلامي استجابة لمثير داخلي؛ وهذه الكلمة تستخدم كمثير آخر لكلمة أخرى وهكذا؛ فإن شكل الكلام يكون كالآتي :

{م1 _____ س1}_____ {م2 _____ س2}___ {م3_____ س3 }...الخ

إن هذه النظرية لم تسلم كغيرها من الانتقادات ، إلا أن بلومفيلد يُعتبر نقطة البدء التي انطلق منها كثير من اللغويين من بعده ،وأعماله لا تزال تسهم في بناء كثير من الأعمال اللغوية رغم هجران بعضها .

2 – <u>الإلياذة في ضوء النظرية السلوكية</u> :

تعتبر الإلياذة أعظم عمل ملحمي وصل إلينا من الآداب الغربية , استطاع ناظمها هوميروس الشاعر اليوناني و بواسطة أسلوب مبسط أن يجعل منها فنا متسلسل الأحداث تجعل القاريء لها يفهم أن موضوع الإلياذة واحد، تدور حوله أحداث مترابطة رغم كثرة الأشخاص ، والملحمة هي أقدم الفنون الأدبية، وهي"من حيث أنها جنس أدبي ، هي قصة بطولة تُحكى شعرا، تحتوي على أفعال عجيبة ؛أي على حوادث خارقة للعادة، وفيها يتجاوز الوصف مع الحوار، وصور الشخصيات و الخطب ولكن الحكاية هي العنصر الذي يسيطر على ما عداه،على أن هذه الحكاية لا تخلو من الاستطرادات وعوارض الأحداث"[7] و تظهر هذه الصفات جليا في الإلياذة، فالمعارك في هذه الملحمة تعتمد الخوارق و الأساطير دفاعا عن المقدسات التي تتعلق بهذا الشعب اليوناني فهي تحكي أحداث العصر المسيني المشربة بالأساطير.

تصور الإلياذة جزءا من حرب طروادة – وهي مملكة كانت تمتد من جنوبي آسيا الصغرى إلى الهلسبنطس أو مضيق الدردنيل , مَلكُها فريام و قاعدتها إليون– و اليونان التي تشكل بعض المماليك الصغيرة والتي كانت كثيرا ما تتشاجر فيما بينها و قد دامت هذه الحرب عشر سنوات كاملة إختار منها هوميروس أياما قلائل من السنة العاشرة والأخيرة ،والتي حدث فيها حصار إليون ، وبنى عليها منظومته ، وتتكون هذه المنظومة من أربع و عشرين نشيدا ، تدور الإلياذة حول موضوع واحد هو <غضب أخيل > و مجمل القصة أن آغاممنون الملك الإسبارطي أعجب بإحدى سبايا أخيل فانتزعها منه موثرا بها لنفسه، الشيء الذي جعل

أخيل يحتدم غضبا و يتصدى لآغاممنون، و كاد أن يبطش به لولا تدخل إلهة الحكمة أثينا، التي أخمدت ذلك النزاع ، فغضب أخيل وانسحب من القتال وبقي بعيدا في عزلة مع نفسه ،افتقد اليونان أخيل بسبب اشتداد الوطء عليهم من طرف الطرواد

فلجأ حشد كبير من الإغريق إلى أخيل لاسترضائه بالعودة ، إلا أنه امتنع عن الرجوع معهم، الشيء الذي أدى إلى ضعف قوى اليونانيين ، وفي المقابل فإن قوة الطرواد تزيد يوما بعد يوم، خصوصا ما كان من هكطور زعيم الطرواد وابن فريام, وعندما رأى فطرقل صديق أخيل ما آلت إليه بلاده ، حاول مستعطفا أخيل الرجوع إلى القتال رغم امتناع هذا الأخير ثانية، ولكن بعد جهد جهيد أذن له أخيل بأن يتقلد سلاحه ويحمل على الطرواد بجند المرامدة ، وخرج عليهم فطرقل فشتت شملهم ، إلا أنه ارتد قتيلا أمام هكتور، وصل نبأ وفاة فطرقل إلى أخيل فحزن عليه حزنا شديدا تحول فيما بعد إلى غضب على الطرواد, فخرج للأخذ بثأر صديقه, فهاجم الطرواد وبطش بهم ، ثم برز له هكطور فقتله أخيل ونكل به ليكون عبرة لغيره .هذه هي الأحداث التي تناولتها الإلياذة , فهذا أخيل يتصف بالسجايا التي تجعل من الإنسان مثار إعجاب, لأننا نلحظ تلك الرفعة في تصرفاته و مشاعره.

إن دراسة هذه الإلياذة هي دراسة للغتها و التي هي مجموعة من العادات الصوتية ،التي تتحكم فيها مثيرات بيئية ؛أي: إن الأحداث الكلامية ما هي إلا سلوك يقوم به الإنسان كما يقوم ببعض الأعمال في حياته اليومية ، وهذا السلوك تكتنفه بعض الظروف و الملابسات، فإذا فهمنا الموقف الذي يكون فيه المتكلم و المستمع ، فإننا نفهم المعنى، و يتواصل ذلك التأثير في شكل سلسلة من المثيرات والاستجابات مشكلا اللغة ،و تطبيق ذلك على اللغة يعني استخراج تلك المثيرات والاستجابات من اجل فهم الكلام الملفوظ , يقول هوميروس في مطلع الإلياذة:

ربة الشعر عن أخيل بن فيلا أنشدينا و ارو احتداما و بيلا [8]

فهو يستمد المعونة من ربة الشعر لتثبت فيه روح النظم و الإنشاد ,أثار ذلك ربة الشعر إلا أنها بدل أن تستجيب هي بالغناء؛قامت باستجابة بديلة، فقد أصبحت تنشد على لسانه فهي صاحبة الفضل، وهو ناقل يملي على الملإ ما يتلقنه من فيض روحها، إذا فدعاء الشاعر هنا يمثل المثير, أما الاستجابة فهي إنشاد الشاعر نفسه :

ذاك كيد عم الإخاء بلاه فكرام النفوس ألفت أفولا

لأذيس انقذن منحدرات و فرى الطير و الكلاب القيولا [9]

فقد أصبح الشاعر الذي التحمت روحه مع روح الإله يصف ما حدث لاخيل ، ذالك البطل الذي أحاط بالأعداء فكان كيده لهم كيدان ، على الجيش بأن قتلهم و تركهم في العراء تصيب الطير و الكلاب من جثثهم ، و قد جعل الشاعر لآلهة الشعر مكانة كبيرة لذلك خاطبها مجلا إياها بان جعلها هي المنشدة ،إلا أن هذا الخطاب لم يكن اصطناعا، بل كان عفويا لان المتكلم عادة يكيف صيغة خطابه حسب أصناف الذين يخاطبهم فـــ " لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة , و لا الملوك بكلام السوقة ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعنى كل التدقيق ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ولا يصفيها كل التصفية و لا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما، أو فيلسوفا عليما"[10]

ألا ترى ذلك في كلام الشاعر فهو في سياق النظم يستنشدها حينا بعد حين لئلا تغرب عن ذهن القاريء ، و بذلك نجد إنشاد الشاعر في كل مرة يمثل ذلك المثير، و الذي يستدعي دائما استجابة لفظية، فالمثير هذه المرة عبارة عن سؤال طرحه الشاعر على إلهه : أي رب قضى ؟ منبها إياها إلى الاستجابة لسؤاله فتقول له: إن السبب هو فيبوس إله الشمس ليس غيره، و أكملت حديثها بأن قصت عليه ما كان من فيبوس و عطف زفس عليه، وهي ما كانت لتتم كلامها لو لم تجد استحسانا وانتباها من طرف الشاعر وهذا هو الثواب؛ أي حسن الاستماع

لقد تقدم الكاهن خريسس رافعا صولجان إلهه الذهبي، و خاطب آل الاولمب ،كان خطابه غاية في البلاغة و التأثير، فغرض الكاهن هو استرضاء جيش اليونان في استرجاع فتاته؛ لم يطلب منهم ذلك مباشرة ،بل صاغ خطابه بأساليب جعلت آل الاولمب يتجاوبون معه و يستجيبون له، ففي البداية استعطفهم بالمدح و دعا لهم بالنصر الذي هو غاية أمانيهم :

فرعي أترا ’و قوم أخيا يا من خديتم طرا حذاء جميلا

منحتكم آل الاولمب اعتزازا قهر فريام و عودا جليلا [11]

كان لذلك وقع في أذانهم و استحسانهم لكلامه شجعه على مواصلة الحديث، و كان أثر ذلك واضحا بأن غيَّر نبرة كلامه ، و يوضحه تغير الصيغ اللغوية المستعملة ، فقد استعمل صيغة القسم؛ واستحلفهم بإلههم فيبوس:

فبفيبوس، فرع زفس المعلى من سهام الردى يهيل همولا [12]

فبعد استعطافهم و الدعاء لهم، و ثم استحلافهم بالاههم المُعَلَّى , طلب منهم ما يريد :

"اقبلوا فديتي و ردوا فتاتي " وهو لم يطلب منهم ذلك مباشرة فربما تكون استجابتهم مختلفة فقد يرفضون طلبه أو يسومونه جفاء كما فعل ذلك أغا ممنون، وطلبه هذا كان استجابة لدوافع ملحة فهو استجابة لحاجته في الدفاع عن ابنته من جهة، و وجود إنسان يتوقع أن يحقق له هذه الحاجة من جهة أخرى ،و كل هذه الأسباب والمثيرات أدت إلى استجابة جيش اليونان، فقد اجمعوا و إجماعهم يدل على أنهم حكموا حكما صوابا، فآغا ممنون جائر ومتعسف " فجميع الإغريق ضجوا قبولا"

إلا أنهم آثروا حرمة الشيخ فيهم و ارتضاء الفكاك منه بديلا [13]

لأن خوفهم من آغا ممنون كان أقوى منهم ، وبالتالي خوفهم منعهم من القصاص منه لألاّ يختل نظام الحكم فرضوا به على رأسهم ، فإذا كان خطاب خريس قد اثر في جيوش اليونان بالإيجاب و استجابوا له كما أراد هو ؛إلا أن استجابة آغا ممنون كانت سلبية فقد رفض طلبه و أرجعه مخذولا :

غير أن المقال ساء آغا ممـ نون أترا , فرده مخذولا[14]

عندما يغضب شخص ما فان ذلك يظهر على سلوكه، فجسده يستجيب لذلك الإحساس بجملة من التغيرات؛كاحمرار الوجه نتيجة ارتفاع ضغط الدم ،و اتساع حدقة العين ، وتصبب العرق كل هذه التغيرات تؤدي إلى تغير السلوك اللغوي، ومنه يتحدد الموقف الكلامي وهذه الظروف والملابسات تجعلنا نتنبأ بالاستجابة، أو بالكلام الذي سوف ينطقه هذا الشخص، فهو لن يقول كلاما في الغزل مثلا أو المدح

فأخيل عندما رأى الذي حدث للكاهن خريس غضب، وضاق ذرعا بالذي فعله آغا ممنون فصب جام غضبه عليه، وما لبث الموقف أن تحول إلى حوار حاد، ومع ما يحتويه هذا الحوار من نبرة السخرية، فإننا نجده يرقى إلى مستوى يدل على قوة وجد يثيران الانتباه ، فالكلمات التي ينطقها أخيل تثير آغاممنون و تحثه على الكلام، ومن ثم يستمر الصراع بينهما ،وهذه الكلمات تمثل لاخيل استجابات بديلة لمنبهات داخلية يحس بها ،وقد أحسن في اختياره

الأساليب التي تدل كلها على التهويل و التحريض ،لذا جاءت متتالية مما أضفى عليها قوة وتأثيرا في نفسية آغاممنون الثائرة بسبب ما رماه به:

فقال أخيل يشزره غضوبا : "أيا طمعا تدثر بالشنار
فهل في القوم بعد فتى خداعا تغر هنا فتبدر في بدار؟
علمت بأنني لم آت بغضـــا بأقوام الطراودة الكبار
فقط علي لم يبغوا بســـوء وما سلبوا خيولي أو ثياري
وما نهبوا بأم البـــهم فثيا وذات الخصب زرعي في دياري[15]

و قد استعمل أسلوبا إنشائيا تمثل في الاستفهام والذي خرج إلى معاني أخرى ، وهو سؤال الغرض منه التوبيخ والاحتقار، وقد كان أخيل معتزا ببأسه فتهدد آغاممنون بالقفول إلى أوطانه حتى إذا اشتد بهم البأس طلبوه، بهذا يشفي غليله من آغاممنون, يقول:

سأقلع راجعا ولدي خير أعاود موطني و أحل داري
واشهد لست تلقى بعد خذلي كنوز المال في جرف البحار[16]

إن الكلمات التي يتفوه بها أخيل قامت بدور التحريض الصوتي بالنسبة لآغاممنون، لذا أثارته وحثته على الكلام فقال:

"إذن وقد رمت انهزاما ففر فلست ملتمسا بقاكا
فلي بسواك غزوة خير رهط أجلوني و زفس لي سواكا[17]

و كأن ذلك عندما قال له أخيل أنه سيشتد وطء الحرب به إذا قفل عنه ،فأجابه آغاممنون بأن قفوله ليس قوة منه وإنما هو انهزام ،فإن ذهب أخيل فإن زفس معهم وآغاممنون لا يبالي بغضبه ولا بذهابه لأن ذلك عنده سواء :

فإن تغضب وإن تذهب سواء فليس يزعجني هذا وذاكا[18]

وكلما طال المجال خشنت اللهجة ،وأدى ذلك إلى اشتداد الفتنة بينهما

نطلق على العوامل التي وجهت رغبة أخيل في الكلام بمثيرات {م1}، أما الاستجابة اللفظية لتلك المثيرات فهي استجابة بديلة {س1}، أما آغاممنون فتمثل كلمات أخيل مثيرات بديلة له {م2} وتتمثل العملية الرابعة في كون هذه المثيرات قد عملت استجابة لفظية لدى آغاممنون {س2} ...." وبما أن اللغة عبارة عن سلسلة من الأحداث الكلامية التي هي بدورها

عبرة عن سلسلة من المثيرات – الاستجابات ، فإن كل حدث كلامي يمثل بدوره مثيرا ، وكل مثير تتبعه استجابة لفظية "[17] فكلما ذكر أخيل بطشه ذكَّره آغاممنون بعلو منزلته ، فيقول أخيل:

علمت بأنني لم آت بغضا بأقوام الطراودة الكبار
ورمت سبية ما نلت إلا ببطشي إثر إعلاء الغبار[19]

فيرد عليه آغاممنون:

فتاتك منك أعتاض اقتدارا فتعرف ما مداي وما مداكا
فيخشى من سواي هنا بوجهي مفاخرتي فلا يهوى هواكا [20]

و يستمر الكلام بينهما , تمثل الكلمة الأولى فيه مثيرا للكلمة الثانية و هكذا...

كما نجد صورة أخرى لمثير –استجابة في الإلياذة ، فيما فعله اوذيس أحد أبطال اليونان المغاوير ، فقد اندفع وأخذ عصا الملك من آغاممنون منفعلا بما فعل هذا الأخير من أمر الجيش بالقفول عن الحرب ، فجرى أوذيس وامسك الصولجان ،ثم صاح مخاطبا تلك الجيوش علَّه يستطيع استرجاعها إلى ما أراد زفس ، فقال:

أوَ كيف صاح يليق كالأنذال تر عدون خوفا، فارْتَدع لنصيحتي[21]

وهو سؤال ليس الغرض منه الإجابة، بقدر ماهو لفت للانتباه ،ثم واصل كلامه آمرا تلك الجيوش و ناصحا لها بالعودة .فيقول مخاطبا قائده:

"فتَروَّ واحْذَر غيظه، إذا لم تكن طرا لديه بين أهل الندوة
من كان مولى زفس ليس يذله بل صانه بكرامة و مودة [22]

ثم يواصل كلامه بين الآمر حينا و الناهي حينا آخر، وإنتاج هذه الجمل و التي تعتبر استجابة لبعض المثيرات يستخدم كمثير للجيش الذين استمعوا لرأيه فقد:

تركوا السفائن و الخيام مهرولي ن بكل جمعهم ولم يتشتت[23]

ثم انظر هنا في هذين البيتين:

فاض هكتور قلبه بحبور و تدنى لساحة الميدان

و بزراقه آمال ذويه وقفوا له بالوقار و الاذعان[24]

ففيهما مثير و استجابة ، فهكتور كانت له مكانة كبيرة في قلوب الجميع فإذا أمرهم بإشارة منه بسيفه بالوقوف له(مثير) فإنهم سيستجيبون له مباشرة ،وقد كان ذلك في ساحة القتال عند وقوفه أمام آغاممنون، إلا أن الإغريق أمطروه نبالا وحجارة ،وكانت هذه الأسباب دافعا لآغاممنون في سلوكه سلوكا معينا فقد:

صاح يستوقف الجموع اغامم نون" مهلا, يا عصبة اليونان

فكأني بدا لهكتور أمـــر يرتابه لنا على الاعـــلان[25]

فاستجابوا له بان توقفوا عن فعل ذلك، أما هكطور فقد عملت هذه الكلمات التي انتقلت مع الهواء من فم آغاممنون إلى أذن هكتور ففسرتها كمثير ، وهذه المثيرات أدت إلى استجابة هكطور بالكلام فقال:

....." سمعا بمقالي يا أيها الجيشان

هاكم ما فاريس يلقي عليكم وهو, تدرون أسس هذا الهوان[26]

وأمرهم أن يلقوا سلاحهم ولا يدافعوا عنه إذا برز إلى القتال مع آغاممنون، وأمرهم كذالك أن يبقوا متحدين حتى وإن غلب أحد الرجلين، ثم عملت تلك الاستجابة دور المثير لآغاممنون ، وبما أن التفاهم لا يتم على أكمل صوره إلا إذا استجاب الطرف الثاني بالرد فقد صاح مخاطبا جيش الإغريق:

" فلي الآن سمعكم : ليس منكم من يعاني بلوعه ما أعاني؟

بين فاريس ذا الخصم و بيني قد دهاكم بفاجعات الزمان

هو باد للوغى و أنـــا صاد إنما رمت كف حرب عوان[27]

ثم استطرد في طلبه إبرام عهدة بزعامة فريام الملك، و أن يذبح كبشان للشمس و القمر.

إن الاستجابة لا تكون دائما ردا بالكلام الملفوظ، فقد تكون إيماء بالرأس، أوتحريكا لليد أوغيرها من الحركات ،كأن يقوم المستمع برد فعل يبين استحسانه أو استقباحه لذلك الكلام الذي سمعه، وفي هذه الحالة رد جيش الإغريق بالإيجاب ، فحديث آغاممنون سرهم، وبالتالي عملوا ما طلبه منهم فقد:

سر هذا الحديث كل فريق رغبة في ادراء ذا الحدثان

فتدنوا بالمركبات , وصفوا عدد الحرب بالحضيض دواني[28]

إذا تكلم إنسان ما فمعنى ذلك أن هناك سببا ما أخرجه عن سكوته، وهذا السبب عبارة عن محرك أو مثير، يؤدي هذا المثير عادة إلى استجابة لفظية، فهكطور عندما دخل إلى قصر فريام لرؤية زوجته قبل الرحيل إلى الحرب لم يجدها في مكانها ، وعلينا أن نتصور حالته تلك، فهو مضطرب ، وقلق، واضطرابه هذا الذي يمثل استجابة أولى ، دفعه إلى البحث عنها في أرجاء القصر كاستجابة ثانية وهي قيامه بفعل معين ، وبما أنه حدث وأن كان أمامه بعض النسوة ؛ عملت الكلمات استجابة بديلة لما كان يستطيع أن يفعله فقد بادر بسؤالهن:

أين يا هذي النسا قلن لنا أندروماخ مضت أي قبيل ؟[29]

إلى غير ذلك من الأسئلة المحرضة والتي تدل على حيرته، وقد عملت هذه الأسئلة دور المثير اللغوي بالنسبة للنسوة فقد وصلت ذبذباتها إلى أذنهن ففهمنها ، وتحولت إلى أصوات تعبيرية فقلن:

" تريد الحقَّ والحقُّ يقال فهي في السرو بلِبَال و بال

فرأيناها جرت نحو الحصون جري من داهمه مس الجنون

تصحب المرضع والطفل الحنون [30]

فقد زادت هذه الكلمات في قلقه ، وعندما التقى بها، وهي خائفة كذلك عليه،، ورؤيتها له يمثل لها مثيرا فقد انعكست صورته في ذهنها ،و بالتالي حرضت جهازها العصبي، والذي بدوره نبه تلك الغدد المسئولة عن إفراز الدموع ،وهذه كلها تمثل أحداثا سابقة للكلام، ثم يأتي الكلام نفسه وهو قولها:

يا شقي البحث ذا البأس الوخيم سوف يلقاك بلجات الجحيم

ولي الارمال, والطفل يتيم

سوف تلقاك جماهير عداك و تلقيك مضاضات الهلاك[31]

ثم طرقت كل باب يطرق لامساك هكطور عن الإلقاء بنفسه إلى التهلكة، مهيجة فيه عواطف الحنان فقالت:

إن تموتَنَّ, الأسى يخلد لي و عنا النفس و دمع المقل

لا أبا أسلو به لا أم لي
..... أنت أمي ، وأخي، أنت أبي
أنت بعلي ، أنت كل الإرب
..... آه , فارحم و انعطف رفقا علي[32]

ثم تواصل حديثها مستجيبة لبعض المثيرات الداخلية، منبهة الطرف الثاني بالرد، فإذا أخذ في التكلم" فإن عضلات البطن تتقلص قبل النطق بأول مقطع صوتي، وهذا التقلص يدفع بالأمعاء إلى الجزء الأسفل من القفص الصدري لتكون سندا قويا لعضلات الصدر ، وعندئذ تتقلص العضلات الواقعة بين الأضلاع بحركات سريعة تدفع الهواء إلى الأعلى عبر الأعضاء المحدثة للأصوات , و تواصل عضلات البطن تقلصاتها في حركة بطيئة مضبوطة إلى أن ينتهي الإنسان من الجملة الأولى , فإذا فرغ منها فإن عضلات الشهيق تملأ الصدر ثانية و بسرعة استعدادا للنطق بالجملة الثانية وهكذا..."[33] و هذا الذي حدث لهكطور عندما نطق بالجملة الأولى " ما يشجيك يوليني الشجا" ثم تكررت تلك العملية عدة مرات إلى أن اكتمل كلامه كله ، مذكرا نفسه و إياها بأنه دائما بصدر الفيلق و أنه لا يثنيه الخمول عن واجبه , وعندما أحس بالضجر و القلق عبر عن ذالك الإحساس بالأصوات:

آه لكن فؤادي و الحجى ينبآني أن صمصامي كليل [34]

و كان كلما ذكر جملة ما استحضر صورة زوجته من بعده كيف تكون، فيتأوه ثانية :

بيد أن الخطب كل الخطب آه أن تكوني في سبيات العداه[35]

فهذه كلها استجابات لفظية من طرف هكطور إضافة إلى استجابات حسية أخرى، فأولى هذه الاستجابات هي تلك التي تظهر على الجسد من سيلان للدموع، و هنا المثير هو خوفه على زوجه ،أما الاستجابة الثانية فهي الاضطرابات الداخلية و التي يحس بها هكطور نفسه, وقد عبر الطرفان عما يحسان به بواسطة الألفاظ ، لأن التعبير عن الأحاسيس و تبليغ الأفكار من المتكلم إلى السامع هو وظيفة اللغة فهي وسيلة للتفاهم بين البشر وأداة لا غنى نعها للتعامل بها في حياتهم

وقد اختتم هكطور كلامه ذالك بتنبيهها إلى تعهد شؤونها فقال:

ولكل عمل, امض, كفى واطلبي أعمال ربات السديل
فلك النسج و فتل المغزل و لنا أعمال السمر الذبل

و أنا الإيقاع بالأبطال لي [36]

و تواصل الإلياذة في إعطائنا صورا كثيرة و أمثلة جمة عن المثيرات – استجابات ، التي توضح المعنى وتقربه إلى الأذهان ، من خلال أقوال ، وأعمال ، وحركات شخصياتها التي لا تفتأ تتأثر فيظهر ذالك على تصرفاتها، وما يطرأ على ملامحها من تغيرات أحيانا ، و تحاول كل الشخصيات الموجودة استنفاذ كل طاقاتها الصوتية بفيض من المفردات و الجمل و التي هي في الحقيقة عبارة عن منبهات مرتبطة بمثيرات أخرى داخلية أو خارجية

و أخيرا نقول أن الإلياذة في معظمها عبارة عن مثير ، فالقارىء الذي يقرأ جملة منها تثيره و تحرضه على مواصلة قراءته ، و ربما تثير فيه بعض الأحاسيس فينفعل بتفاعل الأبطال ويبكي لبكاء الناحبات ، وهو لا يمل، ذلك أن شعر هوميروس هو شعر صادق، و الشعر الصادق" هو وحده الذي يولد في القارىء استجابة لا تقل في الحرارة و النبل و الصفاء عن تجربة الشاعر نفسه ، أي سيد الكلام لأنه سيد التجربة"[37]

هوامش و إحالات البحث

1- أحمد مختار عمر, علم الدلالة,عالم الكتب, ط 2 القاهرة 1988 ,ص61

2- حنفي بن عيسى, محاضرات في علم النفس اللغوي, ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر,ط3 {بلا تاريخ} , ص 180

3- محمد بوعمامة ,علم الدلالة بين التراث و علم اللغة الحديث,رسالة دكتوراه جامعة قسنطينة, 1415 هـ – 1995 م , ص54

4- أحمد مختار عمر ,مرجع سابق , ص 59

5- عاطف مدكور , علم اللغة بين التراث و المعاصرة,دار الثقافة للنشر والتوزيع 1987 , ص 33

6- محمد حسن عبد العزيز, مدخل إلى علم اللغة دار الإنماء للطباعة القاهرة 1983 , ص319

7- غنيمي هلال,الأدب المقارن, دار العودة بيروت ط5, ص 143

8- سليمان البستاني,إلياذة هوميروس, دار المشرق بيروت , ط4, الجزء1-2 , ص 146

9- نفسه, ص 147
10- الجاحظ, البيان و التبيين, تح عبد السلام هارون, دار الجيل بيروت ,الجزء1, ص92
11- الإلياذة , ص 151
12- نفسه, ص 151
13- نفسه, ص 151
14- نفسه, ص 151
15- نفسه , ص 152
16- نفسه, ص 153
17- نفسه , ص 154
18- نفسه , ص 154
19- نفسه , ص 155
20- نفسه, ص155
21- نفسه, ص 170
22- نفسه, ص 171
23- نفسه ,ص 174
24- نفسه , ص179
25- نفسه , ص, 179
26- نفسه , ص180
27- نفسه, ص180
28- نفسه, ص181
29- نفسه, ص189
30- الإلياذة, ص 189
31- نفسه, ص 190
32- نفسه, ص 191
33- حنفي بن عيسى, مرجع سابق, ص 124
34- الإلياذة, ص 193

35– نفسه, ص 193

36– نفسه, ص 196

37– محمد عبد المطلب , البلاغة و الأسلوبية , الهيأة المصرية العامة للكتاب,1984 , ص174